الفصل الرابع

كما هو الحال دائمًا

حوار مع صديقة الطفولة

عيناهـا زرقاوان برّاقتان، وتقاسيم وجهها جميلـة، وجسمها نحيل. كانت تقطـن فـي منزل متواضـع يقع عند ممـرّ إيبانيـث، ويحمل الرقـم 510، حيث اعتادت أن تستقبل فيه زائريها بابتسامة عذبة. كان هناك أيضًا كلب أسود يهزّ ذيله، ويتفحّص الوافد الجديد قبل أن يغادر غرفة الجلوس الفارغة مُتّجهًا إلى الباحة التي تقع خلف باحة منزل عائلة ميسي.

تقـول سينتيا (صديقة ليو منذ الصغـر): «والدتي ووالدته مثل الأخوات». وقـد حملت سيلفيا إريانـو بسينتيا في الوقت نفسه الذي كانت فيه سيليا حاملًا بليـو. تشرح سيلفيا هذا الأمر قائلة: «كنّـا نرافق بعضنا على الدوام؛ إذ اعتدنا أن نذهـب إلى التسوّق معًا، ونتكلّم عن مستقبل أبنائنا؛ فسينتيا هي بكري. لقد كنت أنا وسيليا صديقتين حميمتين».

تضع كوبًا من الصودا على الطاولة، ثمّ تأخذ تحاوِر ابنتها الكبرى صاحبة الاثنيـن والعشرين عامًـا، التي صاحبت ليـو في مرحلتي الحضانـة والروضة، فضلًا عـن مرحلة الدراسة الابتدائيـة، ناهيك عن مشاركتـه الاحتفال بأعياد الميلاد والحفلات والمباريات.

بماذا تميَّز ليو في صغره؟

«لقد كان خجولًا جدًّا وقليل الكلام، ولكنّه كان مُتألِّقًا عند لعب الكرة فقط. أتذكّر أوقات الاستراحة عندما كان رؤساء الفرق يختارون أفراد الفريق ويختلفون؛ لأنّ كلاً منهم يرغب في ضمّ ليو إلى فريقه؛ إذ اشتُهِر بتسجيله الكثير من الأهداف. وبذا، فإنّ وجوده مع أيّ فريق يضمن له الفوز. لقد كان شغوفًا بكرة القدم، وكثيرًا ما تخلَّف عن المشاركة في حفلات أعياد الميلاد لحضور مباراة أو تمرين».

كيف كان في المدرسة؟

«لقد كنّا ننعته ببيكيه (الثمرة الصغيرة)؛ لأنّه كان أصغرنا حجمًا. لم يكن ليو يحبّ اللغات ولا الرياضيات، لكنّه كان ماهرًا في مواد التربية البدنية والفنون».

يقولون: إنّكِ كنْتِ تساعدينه...

«هذا صحيح، أحيانًا... فقد كان يجلس خلفي أيام الامتحانات، ويسألني عن إجابة أيّ سؤال غير متأكّد من إجابته. وكنت حينها أُغافِل المعلّمة وأُمرِّر له مسطرتي أو ممحاتي، التي كتبْتُ الإجابة عليها. كنّا أيضًا نحلّ واجباتنا المنزلية وقت الظهيرة معًا دائمًا».

بعد ذلك، تفرّقتما في المرحلة المتوسطة، وذهب ليو إلى برشلونة...

«حقًّا، فقد بكينا جميعًا في ذلك الصيف حين غادر وعائلته إلى إسبانيا. لم أُصدِّق ما جرى، وكنْتُ على وشك فقدان أعزّ أصدقائي. وكثيرًا ما كانت تنتابنا مشاعر جيّاشة حين نتحدّث بالهاتف، وكنت أشعر في هذه الأثناء أنّه يجد العيش في أوروبا أمرًا صعبًا. ولكن، عندما عاودنا الاتصال والتحدّث مرّة

أُخرى، أدركت أنّ هذه الرحلة تُمثِّل تجربة مهمة بالنسبة إليه، فقد ساعدته على النضج بصورة كبيرة. لقد كان هذا الأمر مرهقًا ومحبِطًا لعائلته، لدرجة أنّ سيليا وماريا سول عادتا إلى هنا. وقد أسرَّ لي أنّه أَلِفَ الأمرَ هذا؛ لأنّه كان يلعب كرة القدم مع فتية من أبناء جيله. فقد كان ذلك أمرًا أساسيًّا بالنسبة إليه. أراد ليو أن يصبح لاعب كرة قدم، ونجح في ذلك حقًّا».

تغادر سينتيا الغرفة، ثمّ تعود حاملة ملفًّا مليئًا بالصور وقصاصات من الصحف. تُظهِر إحدى هذه الصور الاثنين معًا حين كانا طفلين؛ ليو يرتدي مريولًا أزرق وبجانبه دمية، ومن ورائهما دمية تُمثِّل عروسًا ضخمة، وبجانبه سينتيا، ذات الشعر المجدول، وهي ترتدي حفاظة. هناك صورة أُخرى تجمعهما بأقرانهما في الحضانة عام 1992م، يظهر فيها الجميع وهم يرتدون زِيًّا أزرق اللون.

نشاهده في صورة أُخرى متأنقًا لحضور المهرجان (الكارنفال)، وهو يرتدي خوذة شرطي، ويضع شاربًا مزيفًا، في حين ترتدي سينتيا ثوبًا أبيض، وتضع نظّارة كبيرة على عينيها.

أمّا بالنسبة إلى قصاصات الجرائد فتحمل عناوين عدّة، مثل: مارادونا الجديد، وميسي الخارق، ومن أيّ كوكب أتيت، وصولًا إلى العناوين التي نُشِرت في شهر تموز من عام 2005م، حين فاز برفقة المنتخب الأرجنتيني بكأس العالَم لفئة الشباب دون سنّ العشرين.

«لقد أشرفْتُ شخصيًّا على تنظيم الحفلة التي أُقيمت هنا في الحيّ؛ إذ مررنا بالجيران كافة، وجمعنا المال اللازم لشراء النثار[1] والألعاب النارية

(١) قطع من الأوراق الملونة تنثر على العروسين (المراجِع).

والطلاء. وقد كتبنا: «ليو، فخر الأمّة» بطلاء أبيض على الأرض، ثمّ رفعنا لافتة على أعمدة الشارع تقول: «أهلًا بالبطل».

كان من المفترض أن يصل الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وقد حرص سكان الحيّ جميعًا على استقباله، مع أنّ الفصل كان شتاءً، والبرد قارسًا، لكنّ ليو لم يصل. فعاد بعضهم إلى دياره من جرّاء التعب. أمّا نحن فقد بقينا ننتظر حتى الساعة الخامسة صباحًا، وحينئذٍ، دخلت شاحنة بيضاء الشارعَ مُطلِقةً العنان لبوقها. في تلك اللحظة، أُضيئت كاميرات التصوير جميعها. ثمّ بدأ الناس بالصراخ، وإطلاق الألعاب النارية، وقرع الطبول مُنشِدين «ليو هنا، ليو هنا». لقد كان مرهقًا، ولم يكن يتوقّع أن يحظى بمثل هذا الاستقبال، لكنّه كان سعيدًا جدًّا».

ثمّ أخذنا نُقلِّب قصاصات وصورًا أُخرى لليو، ولفت انتباهنا بعض التعليقات الشديدة اللهجة التي انتقدته على إثر مباراة الأرجنتين وألمانيا في كأس العالَم عام 2006م، مُذيَّلة بصورة يظهر فيها جالسًا وحده على الدكة.

«لقد نعتوه بالتسرّع والانفعال، وعدم التعاون مع الفريق. لقد تكالبوا عليه، لكنّه لم يكن كذلك. لا يمكن لأحد أن يعرف مكنونات نفسه ومشاعره إذا لم يعرفه أو يخالطه بصورة شخصية. يميل ليو إلى الانعزال إذا لم يُحسِن اللعب جيدًا، فينسحب، مبتعِدًا عن الجميع. إنّه يتصرّف على هذا النحو منذ زمن؛ حتى معي أنا. لقد كان من المستحيل معرفة مشاعره الداخلية. ولكن، على الرغم من ذلك، فقد نجح دائمًا في رسم الابتسامة على مُحَيّاي».

هل تغيّر فيما بعد؟

«لا، فقد ظلّ كما عهدته؛ خجولًا، وهادئًا. إنّه ليو نفسه الذي ترعرعت معه. الفرق الوحيد هو أنّه كان – فيما مضى- يأتي إلى هنا، ثمّ يركب درّاجته

الهوائيــة متوجِّهًا صوب البلدة. أمّا الآن فهو يقود سيــارة؛ لأنّ الناس لا يدَعونه وشأنــه. إنّه لا يــكاد يتخيّل الصخب والتزاحم الذي يتولّــد لحظة حضوره. فقد أضحــى مَنْ كانوا - في يوم ما- فقط جيرانه وسـكّان حيِّه، مِن أشدّ المعجبين به، الذين يحرصون على التقاط الصور معه. أمّا المشجعون فقد كانوا ينتظرون أمام بيته لإلقاء التحية عليه. في حين يرغب الأولاد كافة في أن يصبحوا مثله. وكثيــرًا ما يعتريني شعور بالدهشة حيــن أسمع تعليقات الآخرين، وهو يلعب في إسبانيــا، أو مع المنتخب الوطني. لذا، فعندما يسألني أحد عنه، أُوثر السكوت؛ فأنا لا أريد أن يعتقد أحد ما أنّني أسعى إلى نشر الأقاويل عنه، أو أحاول جذب الانتباه إلــيّ. قطعًا لا، فليو بالنسبة إليّ إنسان متواضع، وصديق قديم، ولايزال غير قادر على إدراك الشهرة التي نالها».